

(2) مفهوم الخيال عند أبي القاسم الشابي في كتابه (الخيال الشعري عند العرب)

د. صفاء امحمد فنيخرة

أستاذ مساعد/ أدب ونقد

كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بالجامعة الأسمرية – ليبيا-

Safa8.1474@gmail.com

ملخص البحث :

يعد كتاب (الخيال الشعري عند العرب للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي وثيقة نقدية تعكس تصوره النقدي للخيال في الشعر العربي القديم، وتبين موقفه النقدي له بوصفه ناقداً وشاعراً، فهو رؤية تتسم بالموضوعية والوضوح والحس الشعري، فقد حصر مفهوم الخيال وحدده بدقة، وسماه الغريزة الشاعرة، أي فطرة الإنسان السليمة التي تشعر بالجوهر الإنساني، وقد قسمه إلى قسمين: الخيال اللفظي وهو غير مقصود كالتشبيه والمجاز، والخيال الشعري أو الفني-المقصود في كتابه- وهو ذو سمات فلسفية وإنسانية أعمق وأكثر سعة. الكلمات المفتاحية: الخيال، الشعرية، الرومانسية، التراث.

Summary of the Research:

The book (poetic imagination for the Arab) by Tunisian poet (AbulqasimAlshabi) is an ancient critical documentary reflects his critical reviews for the ancient Arab poetry and declared his critical position as a critic . It is a viewing distinguished by objectivity and clarity . He limited accuracy understood imagination and called it: the poetic instinct which is the right human primitive feels with human essence and divided it into two parts ; Literal imagination = It is not intended as assimilation and metaphor . Poetic imagination is intended with human philosophical. He limited different human . functions

The key words;

Imagination – Poetry – Romance – Heritage

مدخل :

يعدُّ كتاب (الخيال الشعري عند العرب (1)) للشاعر العربي التونسي أبي القاسم الشابي* وثيقة نقدية تنم عن الرؤية الجمالية الفلسفية للشاعر، والمذهب النقدي له، حيث أسس مفهوماً متفرداً للخيال، تميز به عن سبقه ممن تابعوا مقولات التراث البلاغي كمحمد الخضر حسين، حيث يرى النقاد أنه تأثر بالتجربة الشعرية الغربية في أشعار الرومانسيين، من خلال اطلاعه على الكتب المترجمة، ومما لاشك فيه أنّ هذا الكتاب اصطبغ بشاعريته الفذة وإحساسه المرهف، فثمة حوارية تناصية بين الكتاب النقدي والديوان الشعري، ذلك أنّه اتخذ منه منهجاً يسير عليه فيما أنتج من الشعر، ويرى خليفة التليسي أنّ هذا الكتاب مفتاح تجربته الشعرية، وتحديد واضح لمعالمها(2).

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان مفهوم الخيال – في هذا الكتاب – باعتباره مصطلحاً نقدياً يبين حدود التعريف والخصائص والأنواع والوظائف المختلفة، والوصول للعناصر المشتركة من خلال ما طرحه الناقد من رؤى نظرية ومواقف نقدية تحليلية لشواهد شعرية مختارة، للخروج بصورة ذهنية شاملة عن هذا المفهوم، وقد مهدت لذلك بتقديم لمحة عابرة عن دلالات الخيال في المعجم اللغوي، والمعجم النفسي، ودلالته الاصطلاحية عند النقاد العرب القدامى والمعاصرين وعند الغربيين .

الدلالة اللغوية للخيال :

¹ الكتاب في الأصل محاضرة أو (مسامرة) ألقاها بقاعة الخلدونية في تونس عام 1929م "حين كان الوقوف هذه الوقفة على المنبر للتحدث عن الشعر العربي فروسية وجراً نادرين" من مقالة بعنوان: الخيال الشعري عند العرب للشابي لشوقي أبي شقرا، ينظر: دراسات عن الشابي، إعداد: أبو القاسم كرو، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م، ص 209، وقد طبع الكتاب عدة طبعات الطبعة الأولى دار العرب تونس في 1930م، ثم طبعة الشركة القومية للتوزيع تونس في 1961م، ثم الدار التونسية للنشر في 1975م وتلتها بأخرى في 1985م، وتولت دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة إعادة طبعه في 1998م، وهي الطبعة الورقية التي يحيل إليها هذا البحث، وثمة إصدارات إلكترونية حيث تولت دار هندايي نشره إلكترونياً في الشبكة المعلومات الدولية .

*أبو القاسم الشابي شاعر تونسي ولد في بلدة الشابية سنة 1909م، وقد ثقف نفسه بثقافة عربية أصيلة، ولك نروحه المتمردة جعلته يتجه إلى التجديد، عرف بجرأته منذ حدثه، حيث تمرد على مجتمع الزيتونة الذي يرى الأدب نوعاً من اللهو لا يليق بالطلبة العلماء، توفي في 1934م، له ديوان (أغاني الحياة)، للمزيد ينظر: الشابي حياته وشعره، أبو القاسم كرو، مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1997م، ص 16 .

² ينظر: الشابي وجران، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1398هـ، 1978م، ص 18 .

جاء في المعاجم اللغوية أنّ الخيال قرين الظن والوهم والاشتباه، فخال الشيء يخال خَيْلاً وخَيْلاً وخَيْلاً وخَيْلاً ومخالة ومخيلة وخيلولة: ظنّه، وفي المثل: من يسمع يَحَلْ أي يظن (3)، والخيال والخيالة: ماتشبه لك في اليقظة والحلم من صورة، وجمعه: أخيلة، والخيال أيضا: كساء أسود ينصب على خشبة أو عود يُحَيَّل به للبهائم والطير فتنظنه إنساناً (4)، فالخيال في الاستعمال اللغوي ينصب على إنشاء الصور التخيلية القائمة على الظن والتوهم في اليقظة أو المنام، ولا شك أنّ لها صلة بالواقع والحقيقة ولو بشكل لا واع .
الدلالة النفسية للخيال :

يرى علماء النفس أن الخيال أو التخيل هو تلك القدرة على تأليف صور ذهنية تحاكي ظواهر الطبيعة أو تختلف عنها، ثم التصرف بها بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص، وله عدة وظائف، منها التخيل التكويني والإنشائي وهو يهدف إلى البناء ويفسّر الحقائق بطريقة تدعو إلى تحسين الحياة كتخيل المخترعين والروائيين، أما التخيل الهدام فهو يحلّ المشكلات، ولكن على نحو يلحق الضرر بالفرد أو بالمجتمع، أو يبعد الفرد عن عالم الحقائق إلى عالم الأوهام كتخيل العفاريات والأشباح، وينشأ التخيل الإيهامي مع الطفل، ويظهر في لعبه وأحلامه وينمو مع النشاط الفني والتوجيه المتعمّد حتى يصير خيالياً إبداعياً (5) .

الخيال في الاصطلاح النقدي Imagination :

لا تبعد الدلالة النقدية للخيال عن الأصل اللغوي والدلالة النفسية، فالخيال باعتباره مصطلحاً أدبياً ونقدياً يعدّ نقيضاً للحقيقة Real ، وهو ملكة تستعيد الصور الذهنية بناء على معطى حسي أو معنوي، وتتجاوز الاستعادة إلى التركيب والإنتاج والخلق، يقول الشريف الجرجاني: هو "قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما التفت إليها، فهي خزانة" (6) له، ونجد مصطلح الخيال في التراث النقدي لدى حازم القرطاجني الذي يرى أنه "انفعال من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض" (7)، فهو يشير إلى دوره في خلق الانفعال وتوجيه المشاعر، أما عبد القاهر الجرجاني فقد درس الخيال باعتباره عدولاً وخرقاً للصدق الواقعي الحرفي، وهذا عادة ما يكون في الشعر، والمقصود بالخيال هنا هو الصورة البلاغية، فالتخيل "أن يجعل الشاعر أو الخطيب اجتماع شيئين في وصف علة الحكم الذي يريد، وإن

³ لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، د.ت ، مادة: خيل ، مج 11 ، ص 226 .

⁴ معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الجيل بيروت ، ط 1 ، 1991م ، ج 1، ص 235-236 .

⁵ ينظر : علم النفس ، مصطفى فهمي ، دار المعارف، القاهرة ، ط 1 ، د.ت ، ص 46 .

⁶ التعريفات ، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1985م ، ص 107 .

⁷ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني، دار الثقافة ، 1979م ، ص 89 .

لم يكن في المعقول، ولا مقتضيات العقول" (8)، وقد فطن النقاد العرب في المرحلة الإحيائية الكلاسيكية بدور الخيال الشعري في تحديد هوية الشعر، حيث يرى أحدهم أنه روح الشعر، ولكنه يحصره في التشابيه والاستعارات والأمثال وغيرها مما يدخل في باب التخيل، ويرى أن الخيال معنى يرده العقل لمناقضته الواقع؛ ولهذا يجب ألا يفارق الواقع بل ينطلق منه ليوسع دائرته (9)، أما جماعة الديوان الذين تأثروا بالتيار الرومانسي فقد أولوا أهمية كبرى للخيال، فهذا العقاد يبين البعد الفني الجمالي لوظيفة الخيال الذي يراه أيضا "ملكة تعين على استحضار الصور والأحاسيس والإحاطة بالواقع من جميع نواحيه، توسعة لآفاق الحياة حتى نستطيع أن نعيش في أكثر من مكان أو أكثر من لحظة واحدة، بما نستحضره من الأماكن البعيدة والقريبة، وما نستحييه من الصور الحاضرة والماضية" (10).

وقد أعلى النقاد الرومانسيون في الغرب من شأن الخيال، وعدّوه أكبر نشاط حيوي للعقل (11)، ووسيلة إيجابية وفعالة للوصول إلى الحقيقة، ويعرفه تايلور صموئيل كولردج بأنه "مهارة عقلية موازية للتفكير، وأساسها الفطري هو الربط بين المدركات بتخليصها من قيد الزمان والمكان" (12)، وقد قسمه إلى نوعين: الخيال الرئيسي أو الأولي، وهو القوة الأزلية التي يتم الإدراك الإنساني بواسطتها، وهذا النوع يوجد لدى جميع الناس، والخيال الثانوي أو الإبداعي الذي يتجاوز الإدراك إلى الخلق، وهو يحتاج إلى الحدس والإرادة الواعية المنظمة التي تجمع بين المتناقضات وتوفق بينها، وتوجد الوحدة والألفة بينها، وتنشط هذه الملكة تحت تأثير الشعور الوجداني والعواطف (13).

مفهوم الخيال في كتاب الخيال الشعري عند العرب :

يتميز الشابي باتجاه رومانسي حاد ، وحس شعوري مرهف ، الأمر الذي جعله يطرح مفهوماً متقدماً للخيال يتجاوز المفهوم الكلاسيكي ، لأنه يصدر عن رؤية رومانسية متمردة على رؤى التراثيين تمرداً إيجابياً؛ فهو ينتقدها ويضع البديل ، وفي تحديده لمفهوم الخيال يتبع الشابي طريقة الشارح الذي ينشئ كلاماً انطباعياً مضمناً الشيء الكثير من الرؤى الشعرية الرومانسية العميقة، ويمزجها بمفاهيم تقارب رؤية الناقد الذي يطرح المفاهيم

⁸ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاکر، دار المدني بجدة، 1991م ص 248 .

⁹ ينظر: الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية ، محمد الخضر حسين ، جمعه وحققه: علي الرضا التونسي ، ص 7 .

¹⁰ المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، شكري محمد عياد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1993م ، ص 116 .

¹¹ الخيال الرومانسي ، سير موريس بورا ، ترجمة: إبراهيم الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1977م ، ص 7 .

¹² المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، شكري محمد عياد ، ص 117 .

¹³ ينظر: النظرية الرومانتيكية في الشعر، سيرة أدبية لكولردج، ترجمة: عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر، 1971م، ص 240.

العلمية ويستدل لها من حقول متنوعة كتاريخ الأدب وفقه اللغة، وهو يعترض على المنجز التخيلي للشعرية العربية، في علاقة الخيال بالأغراض الشعرية كالغزل ووصف الطبيعة أو في القصة والأساطير في التراث العربي، وهو يرى أن "كل ما أنتجه الذهن العربي (...). ليس له من الخيال الشعري حظ ولا نصيب، وأن الروح السائدة في ذلك، هي النظرة القصيرة الساذجة (...). فهي لا تتحدث عن الطبيعة إلا بألوانها وأشكالها، ولا يهتمها من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، وفي الأساطير لا تعبر عن فكر سام وخيال فياض" (14)، ويبدو الشابي في هذا النص وهو يبحث عن الفكرة الفلسفية العميقة، والغوص في أكثر المعاني إنسانية، ورؤيته هذه بكل مزاياها وعيوبها تعدّ حلقة متقدمة وسابقة لزمانها في مراحل تجديد الشعرية العربية، ويكمن التجديد في الرؤية للأدب بشكل شمولي، وفي الموقف النقدي من التراث العربي، كما كان لدى من سبقه كعباس محمود العقاد (1889-1964م)، ويتميز الشابي بشاعرية مفرطة وحساسية بالغة في التصور النقدي لخيال الشاعر، فعنوان كتابه يحيل إلى الصورة الخيالية الشعرية لمخيل الشاعر، ولهذا فمفردة (إنسان) لا يمكن إلا أن تنصرف إلى الشاعر أو على الأقل ذي الحس الشعري المرهف، ولهذا انطلق الشابي في مفهومه للخيال من نقطة جوهرية تنبئ عن ذاتيته وشموليته في الوقت نفسه، حيث يربطه بماهيته وطبيعة تكوينه، فالخيال "ضروري للإنسان لا بد منه، ولا غنية عنه، ضروري له كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه، ولعقله ولشعوره، مادامت الحياة حياة والإنسان إنساناً" (15)، فهو هنا يحلق بالخيال في آفاقه النفسية والأدبية والعلمية، وهذه حقيقة قررها علماء النفس من قبل، فالخيال ينشأ مع الطفل، وتتحدد حاجته له وفق مرحلته العمرية لتشبع رغباته، وتحل أزماته النفسية المبكرة، وتكمن أهمية الخيال في أنه مصدر كل ابتكار أدبي أو مخترع علمي، فقد نشأ الخيال "في النفس الإنسانية بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان، وبدافع الغريزة الإنسانية الكامنة وراء الميول والرغبات" (16).

ومن هذا الجانب النفسي يتسم الخيال بالذاتية، ومن ثم يكون مختلفاً من إنسان إلى آخر اختلافاً نسبياً، ويشكل أداة للتعبير الذاتي عن مشاعر الإنسان وأفكاره، فيرتبط الخيال لديه بالشعور والعاطفة، أي أنه يعبر حتماً عن العالم الداخلي للأديب، ومن ثم تنساب ألوان هذا العالم لكي تلون واجهات العالم الخارجي، وتتبعثر أشياءه لكي تغمر الكون من حوله، ولكي تفجر في الطرف الآخر ينابيع الشعور المماثل لشعور الشاعر، ولهذا

¹⁴ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 173 - 174 .

¹⁵ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 24 .

¹⁶ نفسه .

فالشابي لا يحصر الخيال في ذاتية محضه، بل يعطيه جانباً موضوعياً يتمثل في الخارجي (الآخر) ف" موضوع الخيال : الجمال في الخارج أولاً ، وفي الداخل ثانياً" (17) .

ويمزج الشابي فاعلية الخيال في الذات بين حاجات روحية وعاطفية ولغوية أيضاً، "فالإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه ، محتاج إليه بغريزته لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله" (18) ، كما يتعرف من خلاله على حقائق الكون الكبرى، وتندمج فيه الفلسفة بالشعر، وهو "أعمق من الموت، وأشد سعة من الحياة" (19)، وهذا يدل على تناغم أفكاره مع مقولات الحركة الشعرية الإنجليزية الرومانسية، إذ أنها تربط الخيال بالروح والحدس والإلهام ، حيث يخلق الشاعر الرومانسي من خلال الخيال " فيتجاوز عالم الحس إلى عوالم مجردة وروحانية، وتقترب هذه الرؤية من جوهر الفنون عموماً والشعر خاصة وهو البحث عن روح الأشياء وجوهرها، وهذا ما بحث عنه الشابي في التراث الشعري، يقول: "إنما أريد أن أبحث في الخيال من ذلك الجانب الذي يتكشف عن نهر الإنسانية الجميل الذي أوله لا نهاية للإنسان، وهي الروح وآخره لا نهاية الحياة" (20)، إنه الخيال الذي يتضمن ملامح الفكر العميق والفلسفة وحقائق الوجود، فهو يبحث عن أدب نضاح بالعواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزراً ، بعيد عن "المجازات الزائفة والكنائيات المتكلفة..." مما لا علاقة له بالروح ولا رحم بينه وبين خيال الحياة" (21)، وبمقاربة شواهد الشعرية التي استدلل بها في طرحه التنظيري هذا، نرى صوراً لهذا الخيال تتمحور حول معاني الحب والأمل والأمومة والأحلام المستحيلة وصراع العواطف الإنسانية، ويرى الشابي أنّ العبرة فيها أن يصورها الأديب بعمق فلسفي وإنساني، ويصل إلى أبعد غور فيها، حيث "النظرة الطويلة المتدبرة، والإحاطة الشاملة المتقصية" (22) .

الخيال غريزة شاعرة :

سمى الشابي الخيال بالغريزة الشاعرة ويقصد بها: الطبع والسليقة والعفوية الصافية المضادة لمذهب الصناعة والتكلف، فقد "هبط الإنسان هذه الأرض مزوداً بتلك الغريزة الشاعرة ، فكانت هي الأمل الجميل الذي

¹⁷ الخيال الشعري عند العرب للشابي ، شوقي أبو شقرا ، مقال ضمن كتاب: دراسات عن الشابي، أبو القاسم كرو، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م ، ص 211 .

¹⁸ الخيال الشعري عند العرب ، أبو القاسم الشابي ، ص 33 .

¹⁹ نفسه ، ص 156 .

²⁰ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 35 .

²¹ نفسه، ص 156 – 157 .

²² نفسه ، ص 175 .

ينير له مسالك العيش ، ويمهد له سبل الحياة" (23)، ويقول معللاً تلك الحتمية التي يضيفها على الخيال : " لأن الخيال نشأ في النفس الإنسانية ، بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة الإنسانية الكامنة وراء الميول والرغبات ، وما كان منشؤه الغريزة ، ومصدره الطبع ، فهو حي خالد لا ولن يمكن أن يزول إلا إذا اضمحل العالم وتناثرت الأيام في أودية العدم" (24)، وذلك لأن الصنعة تكبت الخيال بدليل أن (الإنسان الفطري الأول) - كما يعبر الشابي- خصب الخيال، لم يعرف إجماعه، أو حتى تسميته بمصطلحات بلاغية أو غير بلاغية، وكان الخيال عنده في قوة الحقيقة، ولا يعني الشابي بالفاظ الطبع والغريزة: الغريزة الأولية والطبع الفطري البدائي، بل الطبع الأدبي والموهبة الشعرية التخيلية التي يرى أن الإنسان يمتلكها فطرياً، وهذا ما يفسره الحديث عن (الطبع) في التراث النقدي العربي ، فسؤال الخيال في التراث النقدي يثيره الحديث عن الطبع الذي يتضمن فيما يتضمن تلك القوة التخيلية التي تستثار بالحوافز أو بالطواف في الرباع المخيلية والرياض المعشبة ، أو بالوقوف على الماء الجاري والمكان الخضر .. وقوة الخيال هي قوة الغريزة نفسها، وهي قوة متفاوتة بمقدار اختلاف المؤثرات فيها، وهي بحاجة إلى دربة عن طريق الثقافة ، والغريزة لفظ يقابل الطبع عند الجاحظ ، كما ترد عند ابن قتيبة أيضاً، إذ يقول في تعليقه عسر قول الشعر: إنه قد ينشأ من عارض يعترض على الغريزة ، أي يؤثر في الطبع ، فالطبع كلمة تعدد دلالتها، فقد تعني قوة الشاعرية ، أو الطاقة الشعرية (25)، ويؤكد الشابي مفهومه للطبع والغريزة بقوله: "إن الإنسان شاعر بطبعه في جبلته يكمن الشعر ، وفي روحه يتروم البيان، إذ أي إنسان لا يحتاجه المنظر الشاعر، والمشهد الخلاب، وأي امرئ لا يستخفه الجمال في أي مظهر من مظاهره، وفي أي فتنة من فتنه؟" (26)، ويرى أن الناس ينقسمون إلى قسمين بحسب نوع الخيال أو (الغريزة الشاعرية) ودرجة عمقها، وبالتالي يختلفون في درجة إدراك الجمال والإحساس به فهم: قسم ضعفت فيهم لانشغالهم بغرائز أخرى، وقسم ثان قويته فيهم حد التمرد، فطغت على ماعداها من الغرائز البشرية المتطاحنة، "وبقوة هاته الغريزة أو ضعفها متفاوت الإحساس والشعور، فينفجر الشعر الخالد من بعض الأفتدة البشرية، على حين أن الأخرى لا ترشح بغير الصديد، وتنكشف بعض النفوس عن عبقریات جبارة عاصفة، على حين أن البعض الآخر لا يلد غير الغباوة المستخذية النائمة" (27)، ويعلل لهذا التفاوت بوجود مرجعية إنسانية تمثل الدافع الانفعالي لإثارة الخيال "فرب

²³ نفسه ، ص 29 .²⁴ نفسه ، ص 24 .²⁵ ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت، ط4 ، 1992م ، ص 100 .²⁶ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 27 .²⁷ نفسه، ص 28 .

دمعة يائسة أيقظت ألف عاطفة نائمة، وربّ ابتسامة حاملة أهاجت سواكن الوجود... ورب مشهد رائع أحيا عبقرية خالدة. ورب فكرة واحدة صدعت أركان قلب كبير" (28).

أنواع الخيال :

يحدد الشابي في بداية كتابه الوجهة التي سيتبعها، ونوع الخيال الذي سيكون محور بحثه ، فقسم

الخيال إلى نوعين :

النوع الأول : الخيال اللفظي أو الصناعي :

ويتمثل لدى الشابي في الصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة والمجاز، ويرى أنه قد "اتخذ الإنسان أولاً ليعبر به عن ذات نفسه حين لا يجد لها مساعداً في الحقيقة العارية، ثم تطور هذا النوع مع الزمان فكان منه هذا النوع الذي نعرفه، والذي ألفت فيه كتب البلاغة على اختلافها" (29)، فيلجأ الأديب من خلاله إلى الوسائل المجازية في الوصف والتصوير، وهذا التعبير ينقل ما في أعماق الأديب من مشاعر وتصورات، وتتوقف قوة التعبير على مقدار صدقه، ويرى الشابي أن الخيال المجازي قديم قدم الإنسان ولكن لم يكن يستعمله بوصفه مجازاً وإنما حقيقة، وقد كان طريقاً لظهور الأساطير "فكان يتخذ من الخيال مطايا لأغراضه ، وأجساداً لمعانيه، دون أن يخطر بباله أنه استعمل تلك الجملة أو الكلمة في غير ما وضعت له_ كما يقول علماء البلاغة_ لأنه واثق أنها مستعملة في وضعها الطبيعي الذي لا تمجز فيه" (30)، وقد استدلت بتسمية العرب الصدى (ابنة الجبل) التي هي "أسبق وجوداً في العربية من الصدى ، لأن المعاني الخيالية أقرب إلى ذهن الإنسان الأول من المعاني الحقيقية، وأعتقد أيضاً أن واضع هذه الكلمة كان يحسب أنّ الصوت الذي أجابه صوت جنية من بنات الجبال فسماه بهذا الاسم" (31)، ومن خلال تسميته بالخيال الصناعي نلاحظ أن الشابي أضفى عليه سمة القصدية والتكلف، فهو قد اتخذ أولاً للتعبير عن المعاني التي لا يفصح عنها الكلام المألوف، ولكن مع مرور الزمن أصبح لا يراد منه إلا تجميل العبارة وتزويقها ليس غير، ويشير إلى رفض بعض النقاد القدامى أن يتعدى الخيال المجازي "حدود العقل وما يقتضيه من أحكام منطقية، فالتشبيه لم يكن عندهم أداة من أدوات رسم الصورة الشعرية ، بل كانت أداة من أدوات تقريب المعنى وإيضاحه" (32)، وهنا يلوح الشابي لما فعله النقاد القدامى المحافظون من تجميد الخيال

²⁸ نفسه ، ص 28 – 29 .

²⁹ نفسه، ص 36 .

³⁰ نفسه ، ص 30 – 31 .

³¹ نفسه ، ص 31 .

³² بالتصوير الشعري ، عدنان قاسم ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1980م ، ص 37 .

الشعري وإساءة الظن به، بتقييده بشروط عمود الشعر، والحرص على الملاءمة بين عناصر الصورة، ف"كانت الوثبات الخيالية التي تلغي الفواصل والحدود بين الأشياء أمراً غير مرغوب فيه، مما ترتب عليه تفضيل التشبيه على المجاز؛ لأنه يجمع بين حقيقتين حسيّتين في الغالب" (33)، ولكن هذا لا ينطبق على كل المواقف النقدية في التراث، فقد استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يتجاوز ما وقف عنده القدماء من المتشبهين بعمود الشعر، فأعلى من شأن الخيال وآمن بقدرته على صنع الصور التشبيهية المفارقة للصدق الواقعي، فذهب إلى أنّ من يرى أعذب الشعر أكذبه، فقد اختار الخيال والتجوز والمبالغة، فإنّ "الصنعة إنما تُمَدُّ باعها وتنشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفرانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل، وحيث يُقصد التلطف والتأويل (...). وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد، ويبدى في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً، ومَدَدًا من المعاني متتابعاً" (34)، ولعل الشابي يشير إلى فترات الضعف التي مر بها الأدب العربي حيث سيطر التكلف وطغت الصناعة والزخرف البلاغي، وهو لهذا سماه الخيال الصناعي، وقد تبرأ من هؤلاء المتكلفين "لأن مثل هذه المباحث لا يمكننا أن نستشف من ورائها خوالج الأمة، ولا مشاعر الشعب، ولا نستطيع أن نلمس في جوانبها ذلك النبض الحي الخفوق المترنم بأنباء النفس الإنسانية وأهوائها، ولا أن نعرف مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا الوجود" (35)، ويعدّ هذا الموقف النقدي رؤية جدّ حديثة للخيال، وبالتالي للصورة الشعرية، لأنّ الصورة ثمرة الخيال فهو الرحم الذي تتخلّق فيه الصورة، فلا تكمن قيمتها في سمتها البلاغية، بل ينبع جمالها من مدى دقتها التصويرية وعمقها وصدقها في نقل الشعور المتصل بالدلالة والموقف .

النوع الثاني الخيال الشعري أو الفني :

وهو أوسع دائرة وأكثر أهمية من النوع الأول؛ لأنه يسبغ عليه أبعاداً فلسفية ويجعله لصيقاً بالنفس وفلسفتها منذ تفتحت على الحياة والأشياء، حيث يتخذ الإنسان "ليتهم من ورائه سرائر النفس وخفايا الوجود، وهذا هو الخيال الذي نلمح من خلفه ملامح الفلسفة وأسرّة الفكر ونسمع من ورائه هدير الحياة الكبرى يدوي بكل عنف وشدة" (36)، ويرى أنه فن يزدوج فيه الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر، وقد ذهب الشابي في هذا مذهب الإغريق، كما ذهب عباس محمود العقاد الذي يرى أن الشاعر يتميز عن سواه بقوة الشعور وتيقظه وعمقه

³³ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، علي البطل، دار الأندلس، ط2، 1981م، ص 18 .

³⁴ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص 272

³⁵ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 37 .

³⁶ نفسه، ص 38

واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء (37)، كما ذهب إلى هذا الرومانسيون الغربيون، يقول وردزورت: "إن الشعر هو الأكثر فلسفة بين أنواع الكتابة جميعاً" والخيال عندهم ملكة عبقرية تتسم بالجموح والطموح، فهو يتطلب مثلاً له أينما وجدته في غيره زمانه ومكانه لا يستوجب أولاً وآخراً، إلا من ذات نفسه، ولا يتاح له فهم ما تجيش به عواطفه وآماله إلا بالصورة والأخيلة التي يضيفها على الحقائق" (38). ويرى الشابي أن الخيال الشعري أقدم نشوءاً في النفس فقد ارتبط بها غريزياً وشعورياً، ولهذا خلقت تلك النظرة الفنية التي يلقبها الإنسان على هذا العالم الكبير ولهذا كان (خيالاً فنياً) وهو (خيال شعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور.

وظيفة الخيال الشعري :

أولاً: الوعي بحقائق الكون وبالجوانب الغامضة من الحياة النفسية والاجتماعية: فهو خيال لا يهدف إلى التجسيم والتجسيد والتخييل البلاغي فحسب؛ بل يرنو إلى ما وراء ذلك من دلالات عميقة وخفية، وهذه الوظيفة المعرفية ارتبطت -في تصور الشابي - بالإنسان الأول، الذي لا يزال على صفاء الفطرة ولم تفسده الحضارة الحديثة، فقد اعتمد على الخيال لصفاء قريحته وطبعه المتدين، "فهو دائماً ظامئاً إلى منبع الحياة الأول، الذي كرعت منه الإنسانية على كثر العصور، مشاربها المختلفة ما بين صفو وعكر.. حتى إذا ظفر برشفة منه اطمأنت نفسه، وقرّ ضميره" (39)، وقد دفعه هذا التدين الفطري إلى مقارنة الوعي بظواهر الكون ومحاولة فهمها وتعليلها عن طريق الخيال، فقد جاء الإنسان في هذه الحياة، وكان له "من مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ألغازاً غامضة، ومعانٍ مستترة، تبدو له ملتفة في ثوب من ضباب، كما تبدو الذكريات القصية في زوايا القلوب حتى إذا ما حاول أن يمسكها توارت عنه كما تتوارى الأشباح (...). وما كان الإنسان بخامد النفس ولا هامد الحس حتى يغضي على ما حوله زاهداً فيه، ويقنع بالجهل الأخرس والصمت الكئيب، بل كان قوي المشاعر متحفز الخيال، فذهب يعلل مظاهر الكون بما شاء له الشعر أن يذهب، وأخذ يفسر تعابير الطبيعة الداوية بما يملئ عليه الخيال المرح والشعور النشيط، دون أن يعلق بوهمه قط أنه سادر في الخيال بعيد عن جدد الحقيقة، وإنما كان على ثقة ويقين من أن ما وصل إليه هو في الصميم من الحق... ومن هنا كانت بذور الأساطير الدينية الأولى تثمر في النفوس (...). وهذا هو منشأ الخيال في الفكر البشري القديم قبل أن تصقله الحضارة وتشذبه المدنية" (40)، وقد

³⁷ ينظر: الديوان، عباس محمود العقاد، بالاشتراك مع إبراهيم عبد القادر المازني، القاهرة، 1921م، ج 1، ص 16.

³⁸ الرومانسية الغربية بأقلام أعلامها، ليليان ف. فرست، ترجمة: عيسى العاكوب، مراجعة: فايز إسكندر، د.ت، ص 95.

³⁹ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، 44.

⁴⁰ نفسه، ص 27 - 28.

استدعت فاعلية الخيال في تفسير حقائق الكون إلى تخصيص وإغناء الجانب الروحي في الإنسان، إنه خيال ملتهب بنيران الشك يعمل على فك ألغاز الوجود بثنائياته المحفزة للتأمل والتفكير: الميلاد والموت، الخلود والفناء، السعادة والشقاء.

ثانيا: الغوص في أعماق النفس الإنسانية وكشف أسرارها:

فالخيال الشعري لدى الشابي هو النبي المنقذ والملهم الروحي للسعادة الأبدية، فهو يشبهه بفانوس الحياة السحري الذي يضيئ ظلمات الحياة، وبطلنا على مافي خفايا النفوس (41)، وهذا يقودنا إلى الأنماط الإبداعية التي تعتمد الغوص في الظواهر النفسية للشخصيات. إن تعطش الشابي لتلك الرؤى الشعرية العميقة التي راح ينقب عنها في آداب أمته وآداب الأمم الأخرى، يعلله ما كان في تلك الفترة من فراغ ثقافي وتوق إلى أصوات ثائرة تفجر روحانية الإنسان وتعزز هويته، وتقتل ما طرأ عليها من مادية وجمود، ولهذا تأثر الشابي بالمهجرين وبخاصة جبران خليل جبران الذي كان متمرداً يهدف إلى تحرير الإنسان من قيود المادة، ويفسر ذلك التعطش أيضاً تلك الغربة الروحية التي كانت تفيض من أشعار الشابي، يقول:

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطرباً بأحزان الشيبية والمشيب (42)

ثالثاً: تعزيز الشعور الإنساني وأنسنة الأشياء:

إن الطاقة الإبداعية الأولى التي يمتلكها الإنسان هي الشعور، فقد "هبط الإنسان الأرض لا يملك غير حسه ونفسه، وغير قلبه وشعوره، أما عقله فمزال يحلم في مهد الحياة" (43)، ومع تطور الحياة، ونمو الجوانب العقلية فيه، لم يتجاهل تلك المشاعر التي توثق الصلة العاطفية بينه وبين الحياة والأحياء، فهو "رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال، لأنه وإن أصبح يحتكم إلى العقل ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه، فهو لم يحتكم إلى الشعور، وسيظل كذلك؛ لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، واحتكامه إلى الشعور يدفعه ولا بد إلى استعمال الخيال" (44)، وترجع الحاجة إليه لما فيه من قدرة تعبيرية خاصة تعجز عنها اللغة المعيارية "لأن اللغة

⁴¹ نفسه، ص 146 - 147.

⁴² ديوان أبي القاسم الشابي، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط4، 2005م، من قصيدة على مجزوء الكامل بعنوان: نشيد الأسي، نظمت في 1928م، ص 25.

⁴³ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 29.

⁴⁴ نفسه، ص 33.

مهما بلغت من القوة... فلا ولن تستطيع أن تنهض من دون الخيال_ بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها، وأحلام القلوب البشرية وآلامها، وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة وشعور، بل إنها لا تقتدر على الاضطلاع بهذا الحمل الثقيل حتى بالخيال، وإنما الخيال يمددها بالقوة ماكانت لتجدها لولاها"(45).

وبعد ارتباط الخيال بالتعبير عن الشعور من أحد أهم ثوابت الرومانسية، وبحسب قوة الشعور تكون قوة الخيال في تحقيق هدفه، وحين يصل الخيال إلى مرحلة يعبر فيها عن الشعور الجماعي من خلال التعبير عن الذات، فهذا يعني أنه نجح في التأثير ويكون الفرد منضمًا إلى الجماعة في غناء جماعي، وعندئذ من الممكن الكشف عن الحقيقة الإنسانية الكبرى التي هي غاية الآداب عامة، فالخيال وسيلة للتعبير والتوصيل وتوحيد المشاعر، فكما أن الشعور المرتبط بالموضوع يزيد الخيال قوة ويولد مزيدًا من الرؤى التعبيرية، فالخيال متصل اتصالاً مباشراً بحياتنا الشعورية والعاطفية، وإذا كان الأدب والفنون بشكل عام تحيي هذه العواطف الإنسانية، فإن للخيال الدور الأكبر في إثارتها، وبالتالي تساهم تلك القوة في قوة النص الأدبي، ومدى تحقق الوحدة العضوية فيه وتنوع الصور، فالشعور "يفتح أمام الخيال طرقًا قلما يبصرها من يحمل نفسه على الشعر لمجرد الطمع أو الخوف أو الرجاء"، ونحن نتساءل هل يعني ذلك استبعاد العقل من قبل المذهب الرومانسي وإعطاء السيادة للعواطف؟ والتساؤل عن مفهوم الشابي للخيال وارتباطه بالشعور، حيث يعتبره الأصل للخيال الشعري استمع إليه يقول بلغة يغمس ريشتها دائماً في بحر الخيال: "الشعور أيها السادة هو ذلك النهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية منذ القدم، مترنماً بأفراحها وأتراحها، متغنياً بميوله ورغباتها، جائشاً بكل مالها من فكر وعاطفة، ومن ضجة وسكون، ومن هذا النهر الجميل تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال"(46).

أما الإجابة عن التساؤل السابق فبالنفي، فإن الخيال عند كولردج مثلاً له دور في تنظيم العاطفة وتوحيدها مع الصور العقلية في بناء واحد هو الصورة الفنية... لن نجد تجاهلاً للعقل ولا تهويناً لدوره يفسر في صالح الخيال أو العاطفة كما يقال عادة حين تسطع كلمة (رومانسية) بل سنجد تصوراً جديداً لمعنى العقل ذاته، وأنه ليس ملكة مجردة، ولكنه مجموع قوى الإدراك الإنساني (47)، إذ فالشعور يؤدي إلى الترابط العضوي والنفسي في النص ولهذا اعتبره الشابي مصدر الخيال الإحساس الملتهب والشعور العميق، وهذا الشعور لا يخلو بالطبع من عنصر فكري، فالشعور والفكر يعملان معا على توليد الخيال الشعري، ويتابع الشابي أرسطو في ذلك حين

⁴⁵ نفسه، ص 34.

⁴⁶ نفسه، ص 30 - 31.

⁴⁷ ينظر: الرومانسية الأوروبية بأقلام أعلامها، للي. ف. فرست، ص 10 - 12.

يقول: إن "التخيل متميز عن الإحساس، ولكنه لا يمكن أن يوجد بدون إحساس، وبدون التخيل لا يحصل الاعتقاد" (48).

كما اعتبر الشعور عنصراً من عناصر الأدب كالخيال والفكر، فيجب "أن نتخذ أدباً قوياً فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر، وسعة في الخيال، ودقة في الشعور" (49) وهذه الدقة تساعد الخيال على لمّ شتات الأفكار والصور والرؤى ليصبها في لوحة مترابطة ومنسجمة يلفها وشاح شعوري شفاف لا ينفصل فيه الشكل عن المحتوى أو الألفاظ عن دلالاتها، ولا ينظر إليها إلا ككل واحد.

وقد اتخذ الشابي من غياب هذا العنصر مأخذاً على بعض النماذج في الأدب العربي لافتقارها إلى الشعور العميق الموحد، وبالتالي انعدام الوحدة العضوية يقول: "والشاعر العربي إذا ما أراد أن يبسط فكرة من أفكاره ألقاها في بيت فرد، أو في جملة واحدة إذا استطاع، ثم انهل بوابل من الأفكار المتتابعة بحيث تكون القصيدة كحدائق الحيوان فيها من كل لون ووصف، أو كالأرض المقدسة التي يحشر فيها الناس من كل حذب وصوب، ومن كل فئة وقبيل، وتكون الأفكار منبثة في صعيد واحد، متماسكة بعضها من الرؤوس وبعضها من الأذنان... أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي حركت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية، ثم لا يلقها كما يلقي الأساتذة تعاليمهم، ولكنه يلقها في حلة صافية من الشعر والخيال" (50)، ولعل ذلك ما دفعه للاستشهاد بالمقطوعة ومجموعة الأبيات لا البيت الواحد والبيتين، وهو فارق منهجي بينه وبين من تناول دراسة الخيال في عصره كمحمد الخضر حسين الذي تابع البلاغيين في الاستشهاد بالشاهد الواحد (51). ومن وظائف الخيال: لديه أنسنة الأشياء، وبخاصة في وصف الطبيعة، فالأنسنة وسيلة الخيال في بث حرارة الحياة فيها، بأن يضمخها بروح الإنسان، ويخلع عليها "حلة من شعوره، أو عبقاً من عواطفه" (52)، ولهذا راح يبحث عن النفس الإنساني (53) في وصف ابن زيدون للطبيعة، ويرى أنه وصف جيد، ولكنه يفتقر للخيال الشعري، فهو "ديباجة غضة ناعمة وتعايير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو

⁴⁸ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، 1979م، ص 52-53.

⁴⁹ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 146.

⁵⁰ نفسه، ص 164 - 165.

⁵¹ ينظر: الخيال في الشعر العربي، محمد الخضر حسين التونسي، المكتبة العربية في دمشق، المطبعة الرحمانية، 1922م، ص 7 وما بعدها.

⁵² الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 72.

⁵³ ينظر: العرب مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري، مقالة: الخيال الشعري بين الشابي ومحمد الخضر حسين، إبراهيم عبد الفتاح

رمضان، ج1 و2، السنة 54، رجب وشعبان، 1439هـ، إبريل-مايو، 2018م، ص 38.

إحساس عميق" (54)، وقد اعتمد الشابي في تعميده لمفهوم الخيال على المعجم العاطفي الشعوري، فما أكثر ما يرنو في مقارنته للشعر العربي إلى (الشعور العميق) (الإحساس الملتهب) (العاطفة الحادة) .
رابعا : خلق لغة شعرية موحية:

يرى الشابي أن لغة الإنسان الأول قد امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، لأن التخيل غريزي فيه، يظهر أثره في معتقداته وجملة وتراكيبه، ولكنه لم يكن يفهم منه هذه المعاني الثانوية التي اتفق على تسميتها بالمجاز، فهو لم (يتجاوز) الحقيقة، بل إنه حين يقول: "ماتت الريح" و"أقبل الليل" فهو إنما يقول كلاماً حقيقياً... وبدل على ذلك بأن هذه المعتقدات وردت في أساطير الأقدمين، فقد كانوا يعدّون الريح والليل إلهين من الآلهة الأقوياء، كما يرى أن توظيف الإنسان القديم للخيال المتلبس بالحقيقة في التعبير هي أقدم محاولة لاستعمال الخيال" لأن الإنسان أخذ يتعرف على ما حوله أولاً، حتى إذا ما جاشت بقلبه المعاني أخذ يعبر عنها بالألفاظ والتراكيب" (55).

وحتى بعد ارتقاء مدارك الإنسان وتطور اللغة ونمو العقل، فإنه لا يزال بحاجة إلى الخيال، فمهما بلغت اللغة من القوة والحياة لن تستطيع أن تنهض من دون الخيال بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، الذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وآلامها وكل مافي الحياة من عاطفة وفكر وشعور، بل إنها لا تقتدر على الاضطلاع بهذا الحمل الثقيل حتى بالخيال، وإنما الخيال يمدّها بقوة ما كانت لتجدها لولاه" (56)، والشابي هنا لا يتحدث عن اللغة المعيارية، أو تلك الأداة التواصلية التي تهدف للتعبير والإفهام، بل لغة الخلق والإبداع، والشعور والانفعال، لغة القلق والتوتر، اللغة التي تحمل أعماق المعاني الإنسانية وأشدها تركيزاً وتكثيفاً، ولهذا فهو ينشئ مفارقة بين برود اللغة وصمتها وعجزها، وحرارة الخيال وحيويته وقدراته، "وكيف يتصور من هذه اللغة الخامدة التي منشؤها هاته المادة الباردة، أن تحمل بين جنببيها ذلك اللهب المقدس المتدفق من أبعد قرار في النفس الإنسانية، الخالدة بكل مافيه من توهج وتألق وضياء؟ فهل تريدون أن تسمعوا من الصخرة الصماء أناشيد الملائكة، أم هل تريدون أن توقعوا على ناي من القصب أنغام الفلك؟ إن هذه اللغة البشرية لأصغر وأعجز من أن تحمل مثل هذه الأمانة السماوية، مهما بلغت من الرقي والتقدم، لأنها ضيقة محدودة فانية، والنفس الإنسانية فسيحة لانهائية باقية، وستظل اللغة في حاجة إلى الخيال، لأنه هو الكنز الأبدي الذي يمدّها بالحياة والقوة والشباب، ولكنه مهما أمدّها بالقوة والشباب، فستبقى عاجزة عن استيفاء مافي النفس الإنسانية من عمق

⁵⁴ الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، ص 92 .

⁵⁵ نفسه، ص 27 .

⁵⁶ نفسه، ص 31 .

وسعة وضياء" (57)، فالخيال طاقة خلاقية يتجاوز بها الشاعر المحسوس للمجرد، والمحدود إلى اللامحدود، فالشابي بشعريته المتدفقة يرنو لهذه اللغة القادرة على استيعاب هذا الخيال الانزياحي المتجاوز، ونجد تصوراً مماثلاً لدى المازني الذي يرى "أن الألفاظ قاصرة عن العبارة عما في النفس، والإحاطة بجميع ما يختلج في الصدر ويدور في الذهن من المعاني، هذا ما لا يجمله عاقل ولا يكاد يخفى عن أحد. فإن الألفاظ ليست إلا كإشارات الخرس، نتخيل فيها أغراض صاحبها" (58)، وقد طرح المازني تساؤل الشابي نفسه، وقدم التصور الذي من خلاله تشكل الصور والرؤى الفسيحة من خلال لغة ضيقة، "وحسبك دليلاً على أن العقل ليكتفي بالإشارة ويجتزئ بيسير الإبانة، أن النظرة قد تقوم مقام اللفظة في نقل المعنى من ذهن إلى ذهن، وأن التلميح قد يكون أبلغ في العبارة من التصريح" (59)، فليست العبرة باللغة في ذاتها، وكأن المازني يحيلنا إلى سيميائية الإشارة والنظرة والتلميح في الدلالة على المعنى، الأمر الذي يرجعنا إلى مفهوم الخيال الشعري، وبمعنى أدق مفهوم الصورة الشعرية فهي التي تخلق سيمياء اللغة، وتمدها بالزخم الإيحائي والإيجاز والعمق وتختصر آفاقاً دلالية وجمالية لانهاية لها، فتشكل صورة الليل واقترانه بموج البحر لدى امرئ القيس يعطيه تصوراً لامحدوداً بالظلمة والغموض، وإحساساً بالتتابع واللانهاية، وقد ينقل الخيال الصورة من الذات إلى الوجود كله، وتكون رؤية العالم الخارجي من خلال الأنا رؤية لحدود لها، حيث يصبح الدهر ليلاً مخيماً على قلب الشاعر العباسي بشار بن برد :

خليلي ما بال الدجى لا تزحزح وما بال ضوء الصبح لا يتوضح

أضل الصباح المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح

فقد وَّحد الخيال هنا بين الذات والموضوع، وخلق لغة تتماهي مع الوجود كله .

ويقودنا الحديث عن علاقة الخيال باللغة إلى قضية نشأة المجاز باعتباره نوعاً من الخيال التصويري، فالشابي يشير إلى النشأة المجازية للألفاظ، وقد وافق علماء اللغة الذين يرون "أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي، فخيّل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة، وأنه لاحقيقة فيها" (60) .

الخاتمة :

طرق الشابي قضايا الإبداع بقلم ناقد، وصاغ رؤيته للخيال الشعري بفكر ناقد وروح شاعر، كما تناوله من خلال تاريخ الأدب وعلاقته بالبيئة والحضارة، ولم يكن في ذلك "منسلاً من فيلق الشعراء ولا اصطنع الانسلاخ

⁵⁷ نفسه ، ص 31 – 32 .

⁵⁸ الشعر غاياته ووسائله ، إبراهيم عبد القادر المازني ، مؤسسة نادوي للتعليم والثقافة ، مصر ، د.ت ، ص 15 .

⁵⁹ نفسه .

⁶⁰ دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس، مكتبة أنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4 ، 1984م ، ص 122 .

المنهجي ليتحدث خارج مراسم الانتماء إلى قول الشعر، وإنما كتب ما كتب وهو متمصص للحالة الشعرية كما لو كان ينفث كلمات الشعروهو يتحدث عن الشعر، حتى لكأنّ خطاب النقد هو إلى شعرية الخطابات أقرب منه إلى نثرية الأداء" (61) وقد زواج بين الخيال والشعر، وجعل صلة الشعر بالإنسان بمقدار قوة خياله وحساسيته الشعرية، فالخيال استلهام روعي، وحياء وشعور وفكر وتدبر، والشابي بهذا "يراهن على إنسانية الإنسان مقترنة بهذا الخيال الذي يسوقه في أوسع مفاهيمه" (62)، ويمثل مفهوم الخيال - لدى الشابي - الموقف الرومانسي للشعر ولرسالة الشاعر التي تقدر العاطفة، ولهذا كان ردة فعل ضد النظرة الكلاسيكية التي يدور الخيال فيها في فلك المجاز وسلطة العقل، ويرى النقاد أنه متأثر بالمدرسة المهجرية، وينقد العقاد وميخائيل نعيمة للاتجاه التقليدي المحافظ (63).

وقد يرفض بعض النقاد تحامله وثورته على التراث الأدبي، فقد وصف الخيال في الشعر العربي بالسطحية والمادية الحسية، ولكنه يعلمنا "أنّ التعلق بالأشياء لا يلغي حقنا في نقد الأشياء، وأنّ الإيمان بالتراث إلى حدّ الوجد لا يتناقض مع النظر فيه بعين فاحصة كاشفة، وأنّ الوعي النقدي يبدأ ساعة نكسر طوق الشائبة المتدافعة: إما التعلق فالوفاء وإما النقد فالعقوب" (64)، فمفهوم الخيال الشعري عند العرب، أو بتعبير آخر: شعرية الخيال في التراث رؤية مبدعة خلّاقة وتقدّمية، لأنه يجسد رؤيته ويقدم البديل والمثال الحلم في نظره.

المصادر والمراجع :

1. أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث، عبد السلام المسدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996م .
2. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، مطبعة المدني بالقاهرة، 1991م .
3. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1992م .
4. التصوير الشعري، عدنان قاسم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1980م .
5. التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م .

⁶¹ أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث، عبد السلام المسدي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996م، ص48 .

⁶² نفسه، ص37 .

⁶³ ينظر: الشابي وجبران، خليفة محمد التكليسي، ص20 .

⁶⁴ أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث، عبد السلام المسدي، ص34 .

6. الخيال الرومانسي ، سير موريس بورا ، ترجمة: إبراهيم الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1977م .
7. الخيال الشعري عند العرب ، أبو القاسم الشابي ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة تونس ، ط 1 ، 1998م .
8. الخيال الشعري عند العرب للشابي ، شوقي أبو شقرا ، مقال ضمن كتاب: دراسات عن الشابي، أبو القاسم كرو، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م
9. الخيال في الشعر العربي ، محمد الخضر حسين التونسي ، المكتبة العربية في دمشق، المطبعة الرحمانية، 1922م .
10. دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4، 1984م .
11. ديوان أبي القاسم الشابي، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط4، 2005م .
12. الديوان ، عباس محمود العقاد، بالاشتراك مع إبراهيم عبد القادر المازني ، القاهرة ، 1921م .
13. الرومانسية الغربية بأقلام أعلامها ، ليليان ف. فرست، ترجمة: عيسى العاكوب ، مراجعة: فايز إسكندر، د.ت .
14. الشابي حياته وشعره، أبو القاسم كرو، مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1997م.
15. الشابي وجبران، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا ، 1398هـ ، 1978م
16. الشعر غاياته ووسائله ، إبراهيم عبد القادر المازني ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، د.ت .
17. الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، علي البطل، دار الأندلس، ط2، 1981م .
18. العرب مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري، مقالة: الخيال الشعري بين الشابي ومحمد الخضر حسين، إبراهيم عبدالفتاح رمضان، ج 1 و2، السنة 54، رجب وشعبان، 1439هـ، إبريل-مايو، 2018م
19. علم النفس ، مصطفى فهمي ، دار المعارف، القاهرة ، ط 1 ، د.ت.

20. لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
21. المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، شكري محمد عياد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1993م .
22. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، 1979م .
23. معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الجيل بيروت ، ط1 ، 1991م .
24. منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، دار الثقافة ، 1979م .
25. النظرية الرومانتيكية في الشعر، سيرة أدبية لكولردج، ترجمة: عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر، 1971م .